

الفصل الأول

الحالة الاجتماعية والسياسية في اليمن

١٦٣٥-١٩٠٤م

- ١] ملامح الصراع السياسي والعسكري بين اليمنيين والعثمانيين ١٦٢٦-١٦٣٥م، وتتمثل بالآتي:
- أ- بعد وفاة الإمام القاسم تولى الإمامة من بعده أكبر أبنائه "محمد المؤيد" وكان والده قد عقد صلحاً مع الوالي العثماني محمد باشا، واستمر الصلح سارياً.
- ب- استطاع "الإمام المؤيد" أن يفرض نفوذه على "صعدة، ونجران، ومناطق أقصى شمال اليمن".
- ج- توالى على اليمن ولاية آخرون وهم: فضل باشا الذي خطب ود المؤيد وعبر عن استمرار الصلح، وعندها هرب من سجن صنعاء "الحسن أخو المؤيد" واكتفى الوالي بسجن السجن وأضاف برسالته للمؤيد بأنه لا حرج من خروج الحسن. وخلفه "حيدر باشا" ١٦٢٥م وكان سكيراً عابثاً، فاضطربت الأحوال في اليمن، ثم قام أبناء منطقة "خماش" بالثورة وقتلوا الأمير العثماني في منطقة غرب صنعاء.
- د- نتيجة لذلك قام الإمام المؤيد بنقض الصلح وأعلن الحرب على العثمانيين، وكان أيضاً من جملة الأسباب هو ما قام به "حيدر باشا" في رمضان ١٦٢٦م من قتل أحد كبار الفقهاء من أتباع الإمام المؤيد أثناء زيارته لصنعاء لقضاء بعض حاجاته، وشجعت بعض القبائل المؤيدة بالثورة ضد العثمانيين.

1] ثورة الإمام المؤيد في أكتوبر ١٦٢٦م:

١- استطاع المؤيد بحكم تكوينه العسكري من مباغته القوات العثمانية وألحق بهم هزائم كبيرة وتمكن من اكتساح معظم المناطق الشمالية، ولم يبق مع العثمانيين سوى حصن عمران، وحصن ثلا. وفي عام ١٦٢٧م نجح الإمام المؤيد في الاستيلاء على حصني (كوكبان والطويلة) والخاضعين لأبناء شمس الدين، ثم تعاضد المؤيد مع أبناء شمس الدين في دحر القوات العثمانية وإخراجها من اليمن. فزحفت قواته نحو صنعاء وحاصرها لمدة عامين كاملين حتى اضطر "حيدر باشا" للاستسلام لقوات الإمام المؤيد، وسلمت صنعاء للمؤيد بعد أن اشترط الوالي العثماني الخروج سالماً إلى "زيد" فتم له ذلك في فبراير عام ١٦٢٩م.

٢- استمرت قوات المؤيد بالزحف نحو الجنوب واستولت على ذمار ووصل إلى تعز وخضع أمير عدن اليافعي لنفوذ المؤيد فأبقى في منصبه، ولم يبق في يد العثمانيين سوى زيد والأقاليم التهامية المحيطة بها، وعين "أحمد قانصوه باشا" والياً على اليمن الذي جاء لنجدة العثمانيين إلا أنه فشل وتركزت قواته في تهامة، ولم ينجح قانصوه باشا في الوصول إلى تعز وتلقت قواته عدة هزائم ثم تقدم الوالي العثماني بمشروع صلح بينه وبين المؤيد، فاستغل المؤيد فكرة الصلح ليقوم بترتيب شئون جيوشه والمواقع العسكرية وتوفير السلاح والعتاد، وكانت مدة الصلح لعام واحد فقط. أما الجيوب العسكرية العثمانية فقد بدأت تتسلل هروباً نحو الحجاز، كما تقدم أكثر من ألف جندي بطلب ترحيلهم نحو الشام براً.

٣- تجدد الصراع بين الإمام المؤيد والوالي العثماني قانصوه باشا إلا أن الحسن بن القاسم نجح في إلحاق الهزيمة بالعثمانيين.

٤- عقدت هدنة بين طرفي النزاع عام ١٦٢٥م لمدة عام، وبعد أقل من شهر من عقد الهدنة لجأ قانصوه باشا إلى معسكر الحسن بن القاسم وسلم نفسه، فأكرم الحسن وفادته حتى غادر اليمن وغادر معه أتباعه، وتم لليمن العودة للاستقلال بثوب وحدوي تحت قيادة يمنية واحدة.

- تمتعت اليمن بعد ذلك باستقلال تام مدة مئتي عام، ويعتبر عهد الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم عام ١٦٤٤ م (١٠٥٤هـ) أزهى العهود وأقواها في تاريخ اليمن لتلك الفترة حيث شمل نفوذه كل اليمن شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً إلا أن اليمن تحت النفوذ الزيدي ضعف نتيجة لطبيعة المذهب الزيدي الذي يقضي بأحقية كل هاشمي قادر على تولي السلطة، فتنافس على الإمامة الهاشميون الطامعون بالسلطة مما شجع الزعماء المحليين في كثير من المناطق اليمنية على الانفصال، فانفصلت حضرموت وأعلن شيخ قبيلة العبادلة نفسه حاكماً مستقلاً على لحج عام ١٧٢٨م (١١٤١هـ) كما سيطر على منطقة عدن بعد أن تحالف مع سلطان يافع عام ١٧٣٥م (١١٤٨هـ).

- وفي المناطق الشمالية استقلت قبيلة "آل خيرات" عن الأئمة، ووزعت اليمن فيما بعد إلى مقاطعات صغيرة.

- من ناحية أخرى ازدهرت الحركة التجارية باليمن بشكل ملحوظ، ولم تقوَ الدولة العثمانية على إغلاق البحر الأحمر في وجه التجارة الأوربية، وتدفقت التجارة عبر ميناء "المخا اليمني" وقد أشار الرحالة الدنمركي "نيبور" الذي زار اليمن عام ١٧٣٦م إلى أخلاقيات التسامح التي تميز بها اليمنيون تجاه العناصر غير الإسلامية مما أدى إلى تنشيط حركة التجارة بين اليمنيين والأجانب. وكانت الدولة العثمانية تعتبر اليمن ضمن أراضيها، وكان العثمانيون يتخذون من "جدة" مركزاً سياسياً وعسكرياً لفرض نفوذهم على الجزيرة العربية، وأطلقوا عليها "ولاية الحبش" وكان والي جدة يخضع لسلطة شريف مكة، واستمر الحجاز تحت النفوذ العثماني حتى استولى عليه ابن سعود في مطلع القرن ١٩م نتيجة تضامنه عسكرياً وعقائدياً مع ابن عبد الوهاب صاحب الدعوة الوهابية.

- نتيجة النجاح العسكري الذي حققه ابن سعود في بسط نفوذه نحو مكة والمدينة المنورة تناول على السلطان العثماني وبعث إليه برسالة تحمل في طيها تهديداً وتحذيراً قال فيها : إنه عمل على هدم القباب التي شيدت فوق القبور، ويطلب منه منع مجيء المحمل من دمشق أو القاهرة "فإن ذلك ليس من الدين في شيء" وأعد ابن سعود حملات لم تلبث أن أغارت على العراق، وعلى حدود الشام، وزحفت تلك

الجيوش نحو اليمن، فاستولت على منطقة "عسير" في شمال اليمن، وجعلتها قاعدة لنشر الدعوة الوهابية، وهزموا قبائل تهامة والأشراف، وتمردت القبائل على إمام صنعاء المنصور، وكثر النهب والقتل وقطع الطرق، وحوصرت صنعاء محاصرة شديدة، واستنجد إمام صنعاء المتوكل على الله بوالي مصر "محمد علي باشا" من جهة أخرى كلف السلطان العثماني والي مصر محمد علي باشا بالقضاء على الوهابيين، وتحرير الحرمين الشريفين من قبضتهم، وعندما انتصر محمد علي باشا على الوهابيين في موقعة "بسل" بين الطائف وتربة عام ١٨١٥م انسحب الوهابيون إلى "عسير" في شمال اليمن، وجرت مفاوضات للصلح بين محمد علي باشا والوهابيين انتهت بالفشل. وتحت قيادة ابنه "إبراهيم باشا" استطاع أن يلحق بالوهابيين هزائم متعددة، وتم الاستيلاء على منطقة "الدرعية" عام ١٨١٨م وسلمت مدن نجد لقوات محمد علي بعد فتح الدرعية عاصمة الوهابيين، وتم اعتقال عبد الله بن سعود وأرسل إلى مصر أسيراً ثم رحل منها إلى اسطنبول حيث أمر السلطان العثماني بإعدامه. وتحركت القوات العثمانية لمتابعة الوهابيين في شمال اليمن، وعندما توجهت القوات العثمانية نحو اليمن بعث قائد الحملة "خليل باشا" رسالة إلى إمام صنعاء على أن قواته جاءت إلى اليمن لانتزاع البلاد من ورثة الشريف حمود باعتبارهم من أتباع الوهابيين وإعادتها إلى الإمام.

- أوفد الإمام الزيدي رسله إلى عماله لتسلم البلاد اليمنية التي سيطر عليها جيش محمد علي باشا، وعاد خليل باشا إلى الحجاز بعد أن سلم ما فتحه من البلاد اليمنية للإمام الزيدي، وفي الحجاز اختلف القادة الأتراك فيما بينهم فانضم الوهابيون في مكة إلى صفوف المتمردين نكاية بالمصريين، وحدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه الحرب السورية الأولى مستمرة بين محمد علي باشا والدولة العثمانية، فأرسل الباب العالي فرماناً إلى "تركي بيلمز" يقره والياً على الحجاز نكاية بمحمد علي الذي خرج عن طاعته عام ١٨٢٢م.

- لم يعترف محمد علي باشا بفرمان السلطان، وأرسل حملة من مصر بقيادة "أحمد يكن باشا" إلى ينبع قوامها أربعة آلاف مقاتل، وتوجهت نحو جده فاحتلتها بعد أن انسحب منها تركي بيلمز إلى ميناء قنفذة ثم إلى الحديدة ثم استقر في المخا.

وأخيراً زحفت القوات المصرية بقيادة والي الحجاز نحو المخا التي سقطت في أيديهم، فلجأ تركي بيلمز إلى إحدى السفن البريطانية، وانتهت تلك الفتنة. وأوفد إمام صنعاء وفوده إلى والي الحجاز يهنئه على نجاحه، كما أوفد أمراء حضرموت والمناطق المجاورة لها وفودها إلى محمد علي باشا يطلبون انضمامهم إلى الإدارة التي أقامها إبراهيم يكن باشا في اليمن، ولعب الإنجليز دوراً خطيراً في جلاء المصريين عن اليمن. لقد كان نجاح محمد علي باشا في الاستيلاء على شبه الجزيرة العربية بما في ذلك اليمن، وكذلك السودان، ومساهمة محمد علي في تجارة الهند، ومنعه للسفن الأوربية الآتية من بومباي أن تصعد في البحر الأحمر على موانئ السودان واليمن، فلما خضعت اليمن والسودان لنفوذه شعر البريطانيون أن البحر الأحمر خرج من يدهم إلى مصر، فأقدمت بريطانيا على احتلال عدن عام ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) ولا شك أن احتلال بريطانيا لعدن كان ضربة موجبة لمحمد علي باشا لإرغامه على الانسحاب من اليمن، وقد أعلن إمام صنعاء ولاءه لإبراهيم يكن باشا ليتقي بطش الإنجليز بعد سيطرتهم على عدن وبخاصة أن "هينز" حاكم عدن البريطاني كان يتصل بمشائخ القبائل المجاورة لعدن التي ارتضت الحكم المصري متودداً إليهم بالهدايا والبهات، كما حرصهم على عدم دفع الزكاة المفروضة عليهم للإدارة المصرية في اليمن، ونجح في ذلك، وبعد هزيمة محمد علي باشا في البحر الأبيض المتوسط في مواجهة القوات الأوربية انعقد مؤتمر لندن عام ١٨٤٠م وكان من قراراته الانسحاب من اليمن والحجاز، وبذلك تنفست إنجلترا الصعداء في إزاحة القوات المصرية من اليمن فوطدت أقدامها في عدن. وكان القائد الإنجليزي "هينز" قد لقي مقاومة لمدة يومين من أمير لحج سرعان ما انتهت لصالح الإنجليز نتيجة لقوة عتادهم العسكري، واحتلت عدن في ١٦ يناير ١٨٣٩م، وسكت العثمانيون عن الاحتلال الإنجليزي لعدن بل تحصل الإنجليز على فرمان من الباب العالي يسمح لهم باستخدام الأسطول البريطاني لميناء عدن، وعقد الإنجليز مع رؤساء القبائل معاهدات لمنحهم شرعية الاحتلال. وبلغ عدد القتلى من الإنجليز نتيجة المقاومة الضعيفة (١٥ رجلاً) و(٨ جرحى) بعد الاستيلاء على عدن و(١٣٩) قتيلاً والكثير من الجرحى اليمنيين.

- بعد أن سيطرت إنجلترا على عدن والمناطق المحيطة بها تشجع السلطان العثماني "عبد المجيد" عام ١٨٤٣م على استعادة اليمن ولو أسمى، فعمد إلى مراسلة "الحسين بن علي بن حيدر" حاكم المخلاف السليماني الذي كان قد تحالف مع أمير عسير لمحاربة المصريين وإخراجهم من اليمن، فبعث إليه السلطان العثماني فرماناً يلقيه بحاكم اليمن حسين باشا، على أن تكون الخطبة للخليفة العثماني على منابر المساجد اليمنية، فاستقر الحسين في مدينة الحديدة وأخذ ينظم شؤونها، واستولى على المخا، وزبيد، وحيس، وامتد نفوذه من المخلاف السليماني "نجران" في الشمال إلى ميناء المخا في الجنوب وفي مدينة العريش عاصمة المخلاف السليماني شيد الحسين قلعته المعروفة باسم "نجران" التي وصفت بأنها من أمنع المعاقل في تهامة.

- كانت المنافسة بين الهاشميين الزيود شديدة، وقد لجأ الإمام محمد بن يحيى بن المنصور إلى الحسين بن علي بن حيدر حاكم المخلاف السليماني، في تهامة يرجو مساعدته ضد منافسة الإمام علي بن المهدي عبد الله بن المتوكل بن أحمد في صنعاء، فجند قواته لمناصرته وبهذا الدعم العسكري نجح الإمام محمد بن يحيى في تحقيق النصر ضد خصمه ودخل صنعاء منتصراً وأهدى الإمام محمد بن يحيى للحسين مكتبة تشتمل على مخطوطات كانت في حوزة منافسه المهدي، وكان الحسين مشغولاً بالكتب النادرة.

- وطمع إمام صنعاء في توسيع ممتلكاته على حساب المناطق التي تخضع لنفوذ الحسين التي تضم تعز وضواحيها، فطلب من الحسين أن يسحب جنوده كما راسل خصوم الحسين وطالبهم بالتمرد على الحسين، ونجح نتيجة لخيانة القبائل الهمدانية التي كانت تعمل كجنود مرتزقة للحسين، واقتيد الحسين أسيراً إلى إمام صنعاء فتنازل له عن أملاكه لقاء تأمينه وإطلاق سراحه، واستطاعت قوات إخوة الحسين أن يخلصوه من الأسر بعد أن استعانوا برجال قبائل يام اليمنية، وهاجموا قوات إمام صنعاء في زبيد واستولوا عليها عام ١٨٤٨م وقد أثرت تلك الأحداث في نفسية الحسين أبلغ تأثير وخاصة تعرضه لجحود الإمام محمد بن يحيى فأرسل للسلطان العثماني

عبد المجيد لإخضاع اليمن لسلطته وإعادة الأمن والاستقرار التي نعمت بها في ظل الإدارة المصرية.

- أصدر السلطان العثماني عبد المجيد أوامره إلى والي الحجاز "توفيق باشا" وإلى أمير مكة "محمد بن عون" بسرعة التحرك إلى اليمن على رأس قوة عثمانية ضاربة أبحرت من ميناء جدة وتتكون من ثلاثة آلاف مقاتل، ووصلت إلى ميناء اللحية واتجهت بعد ذلك إلى الحديدة في عام ١٨٤٩م (١٢٦٥هـ).

سارع إمام صنعاء في استقبال العثمانيين وصحب قائد الحملة العثمانية "توفيق باشا" إلى صنعاء وأنزله قصر "غمدان" وتمكن العثمانيون من دخول صنعاء عام ١٨٤٩م دون مقاومة. إلا أن خصم الإمام محمد بن يحيى وهو علي بن المهدي استطاع أن يجمع من حوله رجال القبائل وحرصهم على الهجوم على صنعاء معلناً أن ابن يحيى قد باع اليمن للعثمانيين وشارك أهالي صنعاء القبائل معلنين استنكارهم، ودخلت القبائل صنعاء وقتلوا الأتراك إلا من كان مختبئاً في القصر، وانتهت الأحداث بخروج العثمانيين من صنعاء وانسحابهم إلى الحديدة، أما الإمام محمد بن يحيى فقد اقتحمت القبائل منزله وأخذته أسيراً إلى الإمام الجديد علي ابن المهدي فأمر بإعدامه. ولم تتجح هذه الحملة العثمانية في تحقيق مآربها، وتمركزوا في تهامة حتى عام ١٨٧٢م عندما قدمت حملة عثمانية كبيرة لتعيد اليمن إلى نفوذ الدولة العثمانية. ونظراً لأن اليمنيين لم يعتقدوا جميعاً المذهب الزيدي فإن بعض متعصبي الأئمة الفقهاء لأغراض سياسية برروا حروبهم ضد معارضيهم من الأسر التي تحكم حكماً دنيوياً، وضد الأقليات من الشيعة غير الزيدية بأنها دفاع عن العقيدة الحقة، وكان رجال القبائل اليمنية وسكان الريف الميالون للحرب من أهل الشمال مستعدين دائماً للقتال مع أي كان، وضد من كان تدفعهم إلى ذلك الأسباب الاقتصادية، وكانت هذه الفوضى المستمرة على حساب رخاء البلد المادي حتى أن تاريخ اليمن لم يسجل قط أي عمل إنشائي قام به الأئمة الزيديون ويستحق الذكر سوى إقامة "قصور إمامية، ومساجد، وأضرحة" والملاحظ أن المذهب الزيدي في اليمن أدى إلى تكوين طبقة متميزة في اليمن، فكان السادة ثم يليهم القضاة (العلماء) وكانوا يقاسمون السادة في وظائف الإدارة والقضاء، يليهم كبار ملاك

الأرض والمسيطرين على العمل التجاري أيضاً، ثم الفلاحين ثم يليهم أصحاب الحرف المهنية، ثم الأخدام، وكانوا يعيشون على هامش المجتمع وأصلهم موضع اختلاف (حبشي، فارسي، زنجي) ويعيشون في أحياء خاصة بهم.

- كانت الأوضاع الداخلية المضطربة في اليمن خاصة المناطق الجبلية الخاضعة لحكم الأئمة الزيدية كانت من أهم العوامل التي ساعدت العثمانيين على العودة إلى اليمن ومكنتهم من دخول صنعاء وإقامة الحكم العثماني في عام ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ).

- ويشير المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة أن الإمامة الزيدية في منتصف القرن ١٩م كانت تجتاز محنة من أعظم المحن، إذ توالى على حكم اليمن أئمة ضعاف انصرفوا إلى شؤونهم الشخصية حتى ضعفت سلطتهم وسقطت هيبتهم، وأعلن اليمنيون الثورة عليهم، وانقسمت العاصمة صنعاء إلى تكتلات متنافرة مع بعضها البعض، وكثيراً ما كان الأئمة يستجدون برجال القبائل ضد بعضهم البعض مما عرض مدينة صنعاء وغيرها من المدن اليمنية لغاراتهم التي كان يكثر فيها السلب والنهب والتخريب مما جعل التجار اليمنيون ينضمون إلى غيرهم من زعماء القبائل ممن رأوا الاستعانة بالسلطان العثماني لإقرار الأمور في اليمن. هذا فضلاً عما أحدثته محاولة أحمد الحيمي للاتصال بالعثمانيين والاستعانة بهم في إقرار الأمور في توجيه الأنظار لخوض تلك التجربة. لهذا استجد الإمام علي بن المهدي، والإمام الهادي غالب بن محمد بن يحيى، والإمام الحسين بن المتوكل بن أحمد، ومعهم كثيرون من العلماء والرؤساء والأعيان بالخليفة العثماني "عبد العزيز" عن طريق شريف مكة "محمد بن عون" وبعد أن فرغت القوات العثمانية من القضاء على ثورة أمير عسير "محمد بن عائض" توجهت نحو ميناء الحديدة تنتظر الأوامر في الزحف على صنعاء، وصدرت الأوامر من الأستانة إلى "أحمد مختار باشا" القائد العثماني في الحديدة بالتوجه نحو صنعاء وإلقاء القبض على المتمردين وإقرار الأمن والاستقرار في بلاد اليمن.

- زحفت القوات العثمانية نحو صنعاء عبر طريق مناخة ووجهوا ضربة قاضية للإسماعيليين واستقبلهم وفد الإمام المهدي في مناخة وطلب من أحمد مختار دخول

صنعاء للقضاء على المتمردين، ودخل العثمانيون صنعاء في (٢٦/٤/١٨٧٢م) وبعد أن استولى القائد العثماني على الحصون والقلاع العسكرية وقصر غمدان طلب من الإمام علي بن المهدي تسليمه سجلات الدواوين فرفض ذلك، فاتخذ الوالي قراراً يقضي بطرد الموظفين اليمنيين واستبدالهم بأتراك ثم أوقف المرتبات التي كانت تصرف لأقارب الإمام، واجتاح اليمنيون الشعور بالرهبة من العثمانيين. وتوجهت القوات العثمانية نحو كوكبان التي كانت تخضع لنفوذ الإمام الزيدي وأميرها (أحمد بن محمد شرف الدين) وبعد إخضاع كوكبان بدأ العثمانيون في تشييد الحصون والثكنات العسكرية، وباعتبار أن جنوب اليمن قد خضع للاستعمار الإنجليزي فقد أعيد النظر في التقسيم الإداري على النحو التالي:-

- لواء صنعاء ٨ ألوية و ٢٦ ناحية و ١٠٣ عزلة و ٣٦٧٢ قرية.

- لواء الحديدة ٨ ألوية و ١٦ ناحية و ٣٨ قبيلة، ١٧٢ عزلة.

- لواء عسير ٦ ألوية و ١ ناحية و ٣٤٣ قبيلة.

- لواء تعز ٥ ألوية و ١١ ناحية و ٢٦٦٧ قرية.

ويحكم هؤلاء والي واحد مركزه الرئيسي صنعاء، ويصدر في تعيينه فرمان من الباب العالي، ولم يحدد في العادة فرمان مدة ولايته.

وفي عام ١٨٧٣م تم تعيين والٍ عثماني هو "أحمد أيوب" استطاع أن يخمد تمرد قبيلة "خولان" وفي عام ١٨٧٦م عُيِّن والٍ جديد على اليمن استطاع أن يخضع قبيلة أرحب وقبيلة حاشد بعد حروب عنيفة، واتباع الأتراك سياسة العنف والقسوة مع رجال القبائل اليمنية التي تمردت عليهم، وبلغ الأمر حد الاعتداء على العلماء حيث جمع الوالي ما يزيد عن أربعين عالماً وساقهم إلى سجن الحديدة ومكثوا هناك مدة عامين ومن هؤلاء العلماء محمد حميد الدين والد الإمام يحيى، ورئيس العلماء أحمد بن محمد الكبسي، وزيد بن أحمد الكبسي، وحسين بن علي غمضان، وقد استشهد من العلماء محمد بن محمد المطاع، والجديري وعشيش، وعندما تولى حكم اليمن الوالي العثماني "إسماعيل حقي باشا" عام ١٨٧٨م أمر بإطلاق سراح العلماء اليمنيين مستجيباً لوساطة قاضي الحديدة "محمد عارف المارديني"، ويعد الوالي "توري باشا" الذي تولى الحكم عام ١٨٩٠م من أبرز المصلحين العثمانيين وقد رفع كثيراً من

المظالم عن كاهل المواطنين، وفي نفس العام توفي الإمام الزيدي الهادي شرف الدين في مدينة صعدة وتولى من بعده الإمام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين والد الإمام يحيى.

وعين إسماعيل حقي والياً على اليمن إلا أنه توفي في عام ١٨٩١م ودفن في صنعاء بجوار جامع البكيرية، وعلى إثر ذلك ثارت القبائل ضد الأتراك واتجهت لمحاصرة صنعاء في أوائل عام ١٨٩٢م ودار قتال عنيف مع الأتراك، كما ثارت القبائل في تعز وحاصروها كما حاصروا ذمار، ويريم، وعمران، وحجة، والطويلة، واب وسيطر الإمام على معظم المعازل. وقد أبدت مدن (إب، وجبله، وتعز) ولاءها وتأييدها للإمام محمد بن يحيى حميد الدين، وعندما علم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بثورة القبائل اليمنية بزعامة الإمام الزيدي المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين رأى أن يتبع الأسلوب الدبلوماسي، فعين الوالي "عبد الله باشا" على اليمن ولم يتمكن هذا الوالي من صد الإنجليز في توسعاتهم فغير بالوالي "توفيق باشا" وتوفي الإمام المنصور "بقفلة عذر" عام ١٩٠٤م واتفق أهل الحل والعقد في اختيار ابنه "يحيى" للإمامة وكان عمره خمسة وثلاثين عاماً.